آثار من أولية الشعر
في الشعر الجاهلي
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

ظهرت في عصرنا دعوى عريضة ، يذهب أصحابها إلى إنكار صحة الشعر الجاهلي ، وكان من أكبر ما قامت عليه تلك الدعوى أن هذا الشعر على حسب ما روى لنا يخالف سنة النشوء والارتقاء فيظهر أول ما يظهر بالغاً غاية الكمال ، لا شيء ينقصه من جهة الوزن ، ولا من جهة القافية ، ولا من جهة اللفظ ، ولا من جهة المعنى ، ومثل هذا لا يمكن قبوله ، لأن سنة النشوء والارتقاء من السنن الطبيعية التي لا يشذ شيء عن حكمها ، ويجب إنكار ما يأتي على خلاف مقتضاها

فإذا قيل لهؤلاء الناس إن هذا الشعر الجاهلي كان قبله شعر قديم لم يصل إلينا ، وقد مر هذا الشعر القديم في أطوار تدرج فيها على سنة النشوء والارتقاء ، حتى وصل إلى هذا الشعر الجاهلي فجرى أمره على تلك السنة أيضاً ، ولم يكن فيه شذوذ عنها ، يتخذ ذريعة إلى إنكار صحته ، والطعن في نسبته إلى عصره

إذا قيل لهم هذا قالوا إن هذا الشعر القديم حديث خرافة أيضاً ، لأنه لو صح وجوده لكانت له آثار ولو قليلة في الشعر الجاهلي ، ولم ينقطع أثره هكذا مرة واحدة ، لأن هذا يخالف سنة النشوء والارتقاء أيضاً ، فهي كما تقضي بالتدرج من غير الأصلح إلى الأصلح ، تقضي ببقاء آثار قديمة فيما تتدرج إليه ، لتكون شاهدة بهذا التدرج ، وهي المعروفة في مذهب النشوء والارتقاء باسم الأعضاء الأثرية

ولا شك أن هذا اعتراض له قيمته ، لأنه يقوم على شاهد من العلم ، فلا يقوم في وجهه إلا شاهد يعتمد على العلم كما يعتمد ويتفق مع ما يقضي به مذهب النشوء والارتقاء من سنة التدرج ولا يكفي في إثبات ذلك الشعر القديم الإشارة إليه في مثل قول امرئ القيس :

عُوجا على الطَّلل المحيل لأننا ... نبكي الديار كما بكى ابن خِذام

وقول عنترة :

هل غادرَ الشعراء من مُتَرَدَّمِ ... أم هل عرفتَ الدار بعد توهُّمِ

وقول زهير :

ما أرانا نقول إلا مُعاراً ... أو معاداً من لفظنا مكرُورا

لأنه لا قيمة لهذه النصوص إذا لم يوجد في الشعر الجاهلي آثار من ذلك الشعر القديم تشهد بوجوده ، وتبين بعضاً من حاله قبل أن يصل إلى طور الشعر الجاهلي ، لأنه لا يعقل أن يطفر الشعراء كلهم إلى هذا الطور كما طفر مهلهل وامرؤ القيس وغيرهما من القدماء ، ولا يوجد بينهم متخلفون قد تشبثوا بشيء مما كان عليه الشعر قبل هذا الطور

فذلك الشعر القديم لا بد أنه لم يكن مستقيم الوزن ، ولم يكن يجري على هذه البحور التي يجري عليها الشعر الجاهلي ، فأين أثر ذلك في هذا الشعر ؟

وهو أيضاً لا بد أن يكون مضطرب القافية ، لا يجري فيها على سنن مُطَّرِد ، ولا يتأنق فيها كما تأنق الشعراء الجاهليون ، فأين أثر ذلك في شعرهم ؟

فإذا كان ذلك الشعر قد وجد حقاً ، فإنه لا بد أن يبقى أثر من فساد وزنه وقافيته في الشعر الجاهلي ، حتى يكون دليلاً ناطقاً بأنه درج على سنة التدرج ، ويكون لوجوده فيه دلالة الأعضاء الأثرية على أصلها ، وهي دلالة لا تقبل شكا ، ولا يمكن أن يجادل فيها أولئك الذين ينكرون صحة الشعر الجاهلي .

وقد عثرت على بعض من هذه الآثار في هذه الأيام ، ولا أنكر أنها في كتب متداولة بين الناس ، ولكنهم يمرون عليها ولا يعرفون قيمة دلالتها ، ولا يلتفتون إلى أنها آثار من ذلك الشعر القديم الذي انطوى عنا خبره ، ولا يدركون أن منزلتها في الدلالة على ذلك الشعر ، كمنزلة تلك الآثار المطوية في بطون الأرض ، في دلالتها على تاريخ آبائنا الأقدمين .

وممن وجد في شعره بعض هذه الآثار عبيد بن الأبرص ، وهو شاعر قديم معاصر لمهلهل وامرئ القيس ، وقد روى صاحب الأغاني عن محمد بن سلام أنه قال :

عبيد بن الأبرص قديم الذكر ، عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله :

أقفرَ من أهله مَلْحوبُ

ولا أدرى له ما بعد ذلك

وهذه القصيدة التى ذكرها ابن سلام أشهر قصائد عبيد ابن الأبرص ، ولكنها مع هذا مضطربة الوزن ، مختلة القافية ، ولا يزال علماء العروض مختلفين فى أمرها ، فمن قائل إنها من البسيط ، ومن قائل إنها من الرجز ، ومن قائل إنها خليط منهما ، وذلك أنك تراه يقول فى مطلعها :

أقفر من أهله ملحوبُ فالقُطَبِيَّاتُ فالذَّنُوبُ

وهذا من مُخَلَّع البسيط ، ثم تراه يقول :

أفلحْ بما شئت فقد يُدرَكُ بالضـ ـعفِ وقد يُخْدَعُ الأريبُ

وشطره الأول من الرجز ، وشطره الثانى من مخلع البسيط

ثم يقول بعد هذا فى اختلال وزن واضطراب قافية :

لا يعظ الناسُ من لا يعظ الدَّهـ ـرُ ولا ينفع التَّلِيبُ

إلا سَجِيَّاتُ ما القلوبِ وكم يصبرَنَّ شائقاً حبيبُ

وقد ذكر ابن رشيق أن هذه القصيدة كادت تكون كلاماً غير موزون بعلة ولا غيرها ، حتى قال بعض الناس : إنها خطبة ارتجلها ، فاتزن له أكثرها

والحق عندى أن هذه القصيدة تمثل أولية الشعر العربي خير تمثيل ، وتبين أنه لم يكن له أوزان محدودة يتقيد بها ، ولا بحور متميزة لا يتعداها ، ولا تجرى فيه الحركات والسكنات على لحن مطرد ، لا يتغير ولا يتبدل فى القصيدة الواحدة ، وأن عبيداً فى هذا يمثل بين شعراء عصره حال الشاعر المتخلف ، لأنه لم يتهيأ له من أسباب النهوض ما تهيأ لهم ، فجرى فى شعره مجراه الأول ، ولم يسبأ بما تقيد به شعراء عصره فى أمر الوزن

ومما يروى لعبيد أيضاً من الشعر المختل الوزن قوله :

هى الخمر تكنى الطِّلَا كما الذئب يكنى أبا جعده

ومما وقع من هذا الشعر قول علقمة الفحل ، وهو شاعر قديم

دافعت عنه بشعرى إذ كان فى الفد أججد

فكان فيه ما أتاك وفى تسعين أسرى مقرنين فى صفد

دافع قومي فى الكسر إذ طار بإظهار الظبـاة وقد

فأصبحوا عند جفنة فى الأغـ ـلال منهم والحديد عقد

إذ مجنب فى المجنبين وفى النكهة عن باد ورشـد

فهذه القطعة مما أدخل فى جملة شعر علقمة ، وهى مختلة الوزن حتى قال بعضهم إنها ليست بشعر

وأما القافية فإنها لدقتها كانت أحكامها تخفى على كثير من الشعراء الجاهليين ، فبقى فيها كثير من آثار أولية الشعر كالإقواء والسناد وغيرهما من عيوب القافية ، حتى قيل إن الإقواء كان مذهب العرب فى شعرهم ، ومن ذلك قول امرئ القيس :

أحنظلُ لو حاميتُ وصبرتُمُ لأثنيتُ خيراً صالحاً ولأرضانى

ثياب بنى عوف طهارَى نقيَّة وأوجههم عند المشاهد غرانُ

عُوَيْرٌ ومن مثل العوير ورهطه

وأَسْعَدَ فى ليل البلابل صفوانُ

فقد أصبحوا والله أصفاهم به أَبَرَّ بأيمان وأوْفَى بجيرانِ

وكذلك كان النابغة الذبيانى يقوى فى شعره — وهو من متأخرى شعراء العصر الجاهلى — وكان لا يعرف أن الإقواء من عيوب القافية ، ومن إقوائه قوله فى داليته :

أمِنْ آلِ مَيَّةَ رائحٌ أو مُغْتَدِ عجلانَ ذا زادٍ وغير مُزَوَّدِ

زعم البوارحُ أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغرابُ الأسودُ

وقوله أيضاً :

سقط النصيفُ ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليـدِ

بمُخَضَّبٍ رخْصٍ كأن بَنانه عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعْقَدُ

فلما ظهر الإسلام نهض العرب ورق وجدانهم ، ولطف ذوقهم ، فعرفوا هذه العيوب وتجنبوها ، وافتخروا بذلك على الشعراء قبلهم ، كما قال ذو الرُّمَّة :

وشعرٍ قد أرِقْتُ له طريفٍ أجانبه المُسَانَدَ والمحالا

وقال جرير :

فلا إقواء إذ عَرِسَ القوافى بأفواه الرواة ولا سِنَادا

وبهذا استقامت قوافى الشعر ، واتسقت أوزانه ، بعد أن مرَّ فى تلك الأطوار ، ولم يشذ فى ذلك عن سنة النشوء والارتقاء